المقتطف

الجزء الاول من المجلد المائة

١ يناير سنة ١٩٤٢ — ١٤ ذو الحجة سنة ١٣٦٠

رأي عالم كبير

في الدين والعلم

وأثرهما في عصرنا وفكرنا وحياتنا

هذا الفصل ملخص رسالة للدكتور كارل كمتن وهو عالم اميركي كبير ورئيس معهد من اكبر المعاهد العلمية في العالم نعني «معهد بوسطن التكنولوجي» الذي خرَّج الوفاً من اكبر مهندسي العالم. وقد كتب هذه الرسالة، يحدوهُ روح الخير والصحة، معترفاً في مستهلها بانهُ لا يعدُّ نفسهُ أهلاً لمعالجة موضوع الدين من نواحيهِ الفلسفية العويصة، او مسائله المذهبية المعقدة. ولكنه مع ذلك قدم على الكتابة في الموضوع لأنهُ مؤمن بان هناك نواحيَ من علاقة الدين بالعلم يجدر بالعلماء وغيرهم ان يوجهوا عنايتهم اليها

والناحية الاولى التي يتجه اليها النظر هي ناحية الخلاف الكبير بين العلماء في نظرتهم الى الدين. ففي الطرف الواحد نجد العالم الفيلسوف برترند رسل يقول «ان رأيي في الدين هو رأي لقريطيوس. فالدين مرض وُلد من الخوف وهو مصدر شقاء للناس لا حدَّ لهُ». ويقول كمتن إنهُ لا مفرَّ من الاعتراف بان لقول رسل أساساً من الصحة لجانبٍ غير يسير من المذاهب الدينية مردُّهُ الى الرغبة في النجاة من خوفٍ او سوءٍ وهذه الرغبة ليست في حدّ نفسها شيئاً يُذَمُّ ولكنها لا تقع في مستوى واحدٍ رفيع مع الدوافع الروحية التي تتجلى

في الشعور الديني . وكذلك يجب ان نسلّم بان الحرب والاضطهاد والاستغلال باسم الدين جلبت على العالم « شقاء للناس لا حدَّ له » على قول برتراند رسل

ويقابله في الطرف الآخر المفكر والعالم الطبيعي الكبير الدكتور مليكن . فهو يقول : —

« ليس ثمة تناقض بين العلم والغرض الاصيل من الدين وهو تهذيب الضمائر ورفع مستوى المثل التي ترنو اليها الانسانية . ولكن الديانات المختلفة أو فروع الديانة ، تحتوي على الغالب بعض ما هو غير أصيل في الدين ، وهو مما يشتد الاعتراض عليه . وانني لأومن شخصياً بأن الدين الاصيل لا دين المذاهب أعظم ما يحتاج اليه العالم »

وبعد ذلك روى الدكتور كمتن ما وقع له مع استاذ لاهوتيّ ، للدلالة على بعد الشقة بين نظرتهما في مسائل الدين فقال إنه تبين في بدء الحديث ان الشقة واسعة بين النظرتين ، فوجّه عنايته الى معرفة المسائل التي في الوسع اتفاقهما عليها فقرر ان يسأله سؤالين . فلما أجاب عرف ان الهوّة بينهما غير قابلة للردم

كان السؤال الاول — ما عمر الأرض ؟ ولا يخفى ان المشتغلين بتفسير العهد القديم من التوراة على اعتباره سجلاً دقيقاً لحوادث التاريخ ، حاولوا تعيين عمر الارض على أساس ستة ايام الخليقة وتسلسل الناس من آدم وحواء . وعمر الأرض على هذا الاساس دون عشرة آلاف سنة . يقابل هذا ان العلماء يستندون في تعيين عمر الأرض الى علوم الجيولوجيا والطبيعة . ومن أساليبهم تقدير مدى تفتت الصخور والسابها مع الماء الجاري الى البحر حيث تترسّب . وعلى هذا الاساس قدّر الزمن الذي يستغرقه هذا الفعل في حفر وادي نهر كولورادو مثلاً بمئات الالوف من السنين على الاقل . ودراسة معدل الترسب في مصبي نهري النيل والمسيسبي أفضت الى القول بأن ترسب دلتا النيل ودلتا المسيسبي يستغرق مئات الالوف من السنين كذلك . ثم ان دراسة مقدار الملح الذي تذيبه مياه المطر وينساب مع الانهار والجداول الى البحر ، أفضت الى مثل هذا الجواب . ولكن أدق اساليب العلم في تعيين عمر الارض يقتضي على تقدير عمر الصخور بدراسة ما تحتويه من المواد المشعة ، فكأن المواد المشعة ساعات دقيقة مطوية في الصخور ، تحصي القرون المتتالية ، وهي غير متأثرة بالبرد او الحر او الضغط او التفاعل الكيماوي . والعلماء يعتقدون ان هذا الاسلوب أدق الاساليب جميعاً في استخراج عمر صخور الارض وهو يقدّر به بمئات من ملايين السنين

قال كمتن : فقلت لمحدثي الاستاذ اللاهوتي كيف تستطيع ان تتمسك بالتفسير الحرفي للتوراة وتذهب الى ان عمر الارض عشرة آلاف من السنين ، وأمامك أدلة العلم التي تقدم ذكرها . فقال - أن العلماء تفرض فرضاً لا يمكن اقامة الدليل على صحته ، وهو ان النواميس الطبيعية

التي نستعد حين ما كانت تنطبق على الارض قبل الف سنة او اكثر من الزمان. اما انا فأفضل ان أدرس من الكتاب المقدس بدقيق دقة مطلقة

فاذا تبينت انه من العسير علينا ان نتفق على أساس هذه المسألة وجهت اليه سؤالي الثاني وهو: أيهما أهم في نظرك ولادة المسيح من عذراء، او تعاليمه المتجلية في كلماته وحياته، عن صلة الناس بالله؟ فقال ان ولادة المسيح من عذراء أهم جداً، لاننا اذا لم نسلم بها، فقدنا كل أساس يستند اليه في تعاليمه السلطان اللازم لقبولها والعمل بها. فحاولت ان أقيم دليلاً على ان تعاليم المسيح مقبولة لذاتها، لأن تجاريب البشر أثبتت صحتها واني لاستغرب ان توضع تعاليم المسيح ومثله التي وقف حياته على نشرها وتمكينها في النفوس، في منزلة تلي ما لطريقة ولادته من منزلة. ولكننا لم نتفق

ومن ثم أعتقد ان المثل الذي ضربته في ما تقدم لا يعدو كونه مثلاً نادراً، ولكنه مع ذلك يجب ان نعترف بأنه يمثل لوناً من التفكير الديني ترجع أصوله الى عصور متغلغلة في القدم. فمن بضعة آلاف من السنين كان كل مظهر من مظاهر الطبيعة يسند الى عمل ربٍ او ربةٍ او الى أمره او أمرها. ولكننا اليوم ندرس بيانات المراصد الجوية بدلاً من ان نبتهل الى الشمس والريح والمطر، وفي هذه البيانات والكتب التي ألفها علماء الظواهر الجوية (متيورولوجيا) نقع على القواعد والضوابط التي تفسر حركة الرياح وتولد الغيم وانهمار المطر. وكانت المحاصيل في العصور البدائية، تعتمد في نظر الناس بين اقبال واعراض على ربة الحصاد، ولكننا نعلم الآن انها تعتمد على نوع البذور وطبيعة التربة وتوزيع ضوء الشمس والمطر والسيطرة على الآفات الحشرية

ومنذ بضعة قرون كان الرأي ان القول بان الارض ليست مركز الكون ضربة قاضية على النصوص الدينية، لان هذه النصوص تحتوي على آيات تقول ان الشمس تشرق في الشرق وتغرب في الغرب والنجوم تسير في أفلاكها. والتسليم بالصور الفلكية الحديثة، كان الهزيمة الأولى لآراء الكنيسة المنظمة، وما ارتدته من جلباب السلطان والحكم الذي لا يخطيء

ومن ذلك الخلاف على كروية الارض. فالاغريق كانوا يعرفون هذه الحقيقة قبل كولمبس، ولكن آراءهم في حجم كرة الارض كانت خاطئة. إلا ان الكنيسة قاومت هذا الرأي معلنة ان الانجيل يذكر «اربع زوايا الارض». فكيف تكون الارض كرة ولها زوايا؟ وفي مرحلة معينة من مراحل هذا الخلاف اقترح بعضهم اقتراحاً وسطاً غريباً. ذلك بأن تجعل خارطة الارض المستديرة منقوشة نقشاً مستديراً بين الزوايا، فيحتفظ فيها بفكرة الزوايا الاربع وبقيت هذه الخارطة الى ان أثبت رجال الملاحة وعلماء الفلك

وفي عهدنا هـذا نلاحظ طائفة كبيرة من الكنائس وهي تكافح كفاحاً خامراً نظرية التطور. في نحو ربع قرن عندما كانت زوجتي تؤدي نصيبها من الخدمة في جمعية الشابات المسيحية، زارت معاهد كثيرة للبنات او لتعليم الخياطة حيث كان تعليم نظرية النشوء محظوراً. وكانت البنات تشير الى هذه النظرية همساً بغير ان تحوي شيئاً عن هذا البحث. وفي أثناء زيارة زوجتي لهذه المعاهد كانت البنات تجتمع طوائف وتطلب كل طائفة من زوجتي ان تبرهن بسط مبادىء هذا الموضوع الممنوع. وقد فرض هذا الحظر على الرغم من ان أجيالاً متلاحقة من العلماء استوضحت حقيقة التطور العضوي في النبات والحيوان والانسان بدراسة الطبقات الجيولوجية وما فيها من آثار متحجرة وبتوفرها على دراسة تشريح المقارنة وما أشبه. بل اننا خطونا في هذا العصر خطوة كبيرة بعد ما تبينا اننا قادرون على استحداث انواع جديدة من النبات والحيوان بتعريضها للاشعة السينية او اشعاع الراديوم أو باستعمال بعض المواد الكيميائية لاستحداث صفات جديدة وراثية فيها. ولا يستبعد أن تسيطر على التطور العصري عملاً تجاريا سخرناه لمنافع الناس في حاجات الناس.

جميع الاقوال السابقة الذكر ماثلة بالسؤال هل هناك نزاع بين العلم والدين. والرأي عندي أن الاجابة عن هذا السؤال مرتبطة بما تحتوي عليه ديانة ما. فاذا اتجهت ديانة ما الى اصدار الآراء في شؤون المادة ونواميس الطبيعة والقوى المحركة فيها، سواء أقوانين علم الطبيعة كانت أم قوانين علم الفلك أم قوانين علوم الأحياء والوراثة، فالجواب انهُ لا بدَّ للدين من الاصطدام عاجلاً أم آجلاً بالمعارف العلمية المتغيرة السائرة الى الأمام ولا بدَّ ان يكون الدين في الجانب الخاسر في هذا الصدام. واذا كان هناك من رجال الدين من يتبرم بهذا القول فعليه بمراجعة مار اوغسطينوس الذي فرَّق بين مبادىء الدين وبين حقائق الوجود المتغيرة بتقدم الفهم الانساني واتساع مداركه.

ومما يذكر في هذا الصدد للتسلية والعبرة، حادثة حدثت ببوسطن بالولايات المتحدة عندما كان فرنكلين يجري في تجاربه التي أفضت الى استنباط قضيب الصاعقة. فتحمس فريق من رجال الدين في بوسطن وسخطوا اشد سخط على هذا الاثم، التدخل في عمل الله الذي اختار الرعد والبرق لتأديب ابنائه الخطاة. فلما زلزلت الارض زلزالها في تلك المنطقة زعم الوعاظ من منابر الوعظ ان الله يحذّر الناس من التدخل في أعماله. وليس ثمة ريب في ان هذا الموقف الذي وقفه رجال الدين أفضى في أذهان المتبعين للكشف والاستنباط الى شيء من الانصراف عنهم وعن المذاهب التي يبشرون بها

4

يقابل ... ان العلم لم يتحدَّ حدود ما للدين من وظيفة اساسية في حياة الانسان ...

آماله ومثله والبواعث التي ترشده في صحته وحياته في الجماعة. حتى في هذه الدائرة للعلم نصيب من حيث قدرته على ضبط الاضطرابات العقلية او النفسية، التي تشوه نظرة المرء الى الحياة والناس وتحمله على سلوك لا يوحي به العقل ولا تقبله او تتحمله مصلحة الجماعة

ولكن مع التسليم بكل هذا اعتقد ان في الانسان فطرة دينية تتوق الى الإعراب عن ذاتها وان هناك دنيا عريضة، المقام الاول فيها للتقدير الروحي، فالشأن الاول فيها للدين لا للعلم

***

ان مصادر النزاع الذي قام في فترات مختلفة بين الدين والعلم مردها الى مسائل ليست من صميم الدين. وهي اما بقايا اوهام قديمة واما اضافات لصقت بالدين كما يلصق بعض الصدف بقعر السفن. وقد نشأت هذه الاضافات من مساع صادقة منزهة بذلها فريق من رجال الدين في سبيل استصفاء فلسفة حية، فتغلغلت في المذاهب الدينية واندمجت فيها. وعندي ان العلم أسدى خدمة عظيمة الى الدين الصميم في فك القيود التي قيدته بها هذه الاوهام القديمة او الاضافات وأطلقته حراً نحو أغراضه العليا

ثم ان تأثير العلم في الدين وضّح للناس ان الدين قوة حية متحركة لا قوة جامدة مستقرة. ومن الامثلة التي تضرب على الجمود والاستقرار الايمان بحرفية التوراة مثلاً وكمالها الدائم. اما الذين يعتبرون الدين قوة حية فينظرون الى التوراة على انها قصة لسعي الانسان الدائم وارتقائه المستمر في سبيل انشاء نظرة دينية الى بيئته وما فيها. فاذا نظرنا الى الدين هذه النظرة الحية رأينا في الحال مفارقات عجيبة غريبة، فنفهم التحول في نظر الانسان الى الله من ارباب تُسأل وتُطرى وتتصرف حسب وهمها ورغبتها الغالبة، الى صورة الله الواحد الذي يسير مع الناس ويؤدبهم ثم يغفر لهم اذا تابوا وأنابوا، الى صورة قوة روحية عظيمة تفعل فعلها عن طريق نواميس طبيعية، يستطاع فهمها والاعتماد عليها، وفي الوسع كشف حقيقتها بالعلم. وبهذه النظرة الحية الى الدين نراها تتطور في صور الخير والشر من مرحلة الطاعة العمياء لمجموعة من القواعد، الى صور التمدن الاجتماعي والخير العام. وفي صور الخلاص والحياة الباقية، وانصرافها رويداً رويداً خلال الحقب، عن الاعتبارات الخاصة الى الاعتبارات العامة. هذه الصورة صورة نمو حي، وصورة القوة الروحية، يقبلها العلم وعندي ان صورة الدين المستقر تجعل الدين عقيماً غير مقبول

واني لاعتقد ان هناك حاجة الى تعدد المذاهب الدينية، لان كلاً منها يوجه عناية خاصة الى ناحية من نواحي الحياة الروحية المعقدة المتعددة النواحي. والباعث على هذا الاعتقاد مزدوج. فالاول ان الناس مختلفون مزاجاً وخلقاً ومنهم من تحركه العاطفة

والانفعال أكثر مما يحكمهُ العقل . ومنهم من هو أميل الى التأمل منهُ الى العمل والحركة . ومنهم من يندفع بطبعهِ الى تحمل التبعة وتقلد الزمام بينما غيره يؤثر ان يُرشد ويقاد . وإذن فمن الطبيعي ان تتعدد الكنائس والهيئات الدينية فيجد كل من هؤلاء الناس الغذاء الروحي الذي يلائمهُ . وأما الشقّ الثاني فردّهُ الى ان التباين يفضي الى النشاط والتقدم . وهذا مبدأ يصدق على جميع نواحي الحياة من نبات وحيوان وهيئات اجتماعية . ولذلك لا أوافق بعض من يطالب بمحو جميع المذاهب الدينية والهيئات الدينية وضمها جميعاً في مذهب واحد واخضاعها لهيئة واحدة . ولكن التعدد والتباين بين المذاهب والهيئات الدينية يقتضي التسامح التبادل والاحترام وأساس هذا التسامح هو التشابه بل الوحدة بين الأغراض الدينية العليا التي يتوخاها كل مذهب ديني

واذا سلمنا بأن الدين يشمل النزعات والقيم الروحية ، وأن العلم هو المرجع في نطاق الحقائق الشاهدة والصلات المنطقية بينها ، فيجب علينا كذلك ان نتذكر إن العلم محدوداً في نطاقه قلما يشار اليها . فالعلم لم يكشف قط العلة الاولى ولا الغاية النهائية لشيء ما . في وسع العلماء ان يبينوا كيف يتحرك الكون ، ولكنهم لا يزعمون انهم يستطيعون أن يكشفوا علتهُ الاولى او الباعث على تحركه أو الغاية من هذه الحركة . فاذا شاءت ديانة ما ان تشمل آراءها في هذه النواحي ، فليس في وسع العلم ان ينكرها لانها خارج نطاق العلم . ولكنني اعتقد مع ذلك انها خارج نطاق الدين وما دام اثباتها او إنكارها بالبرهان والشاهدة متعذرين فالمسألة متروكة للتخيل والتأمل

وخلاصة القول ان تاريخ الصلة بين الدين والعلم يبين ان شؤون العالم والحياة التي تخضع للشاهدة والامتحان تؤلف عالماً ، السيادة فيهِ للعلم . فالعلم لم يحل محل الدين ولا يستطيع ان يحلّ محل الدين في معناه الصميم . ولكنه يهيء لنا جوًّا يجب ان نساوقهُ افكارنا في المسائل الدينية . فالعلم قد اضطر الانسان على كره المدهور ان يوسع افق نظره الى الدين بتحطيم الحواجز المصطنعة القائمة على الجهل والوهم والخرافة واتجاههُ العام انما هو الى توجيه نظر الناس الى الصفة الروحية للدين من حيث هو يمثل أرفع المثل وأسمى النزعات وصرف نظرهم عن النظريات اللاهوتية والخلافات المذهبية . وليس من يشك في ان العلم كان لهُ أثر عظيم في نقل الاهتمام بالدين من الاهتمام بالمسائل المادية والدنيوية الى المسائل الروحية

اذن فالعلم كان ذا نصيب في تحويل الدين الى قوة روحية حية فعالة . وقد أدّى هذا النصيب بحمله الناس على تحكيم العقل في الشؤون الشاهدة ثم بالقضاء على الوهم والخرافة واخيراً بتوجيه العناية الى ان التفكير الديني يجب ان يماشي تقدم المعارف في كل ما يتعلق بنشاط الانسان واحوال بيئتهِ وتفسيرها تفسيراً يتسق وأعلى النزعات الروحية